الكتاب السابع

معالم في الطريق

المؤلف: أ. سيد قطب

تحليل وعرض الشيخ جمال قطب

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة جعل عنوانها هو عنوان الكتاب، ويبدأ المؤلف بذكر نتيجة استخلصها هو أن تلك النتيجة هي أن ما تعانيه البشرية من تهديد وضياع ليس بسبب أسلحة الفناء المتاحة لكبار اللاعبين فقط، بل إن هذا التهديد والسقوط بسبب إفلاس البشرية في عالم «القيم» التي تصلح لرعاية مسيرة البشرية.

فكلا المعسكرين الغربي والشرقي - أخذ يتراجع بشدة ويتنكر لكل تلك المبادئ والآليات التي صاغها لنفسه على أعتاب القرن العشرين، حيث قد ثبتت مساوئ النظامين لما يتبناه كل منهما من مبادئ تضاد الفطرة، وتخالف المنطق، لذلك يقرر المؤلف بناء على ما ذكر أنه لابد من قيادة جديدة للبشرية فقد أوشكت القيادة الغربية على الزوال حيث لم تعد تملك قيمًا تستجيب لحاجات البشرية.

والإسلام - كما يدلل المؤلف - هو القيادة المرشحة للبشرية بما لديه من قيم أصيلة ويقول المؤلف في لهجة واثقة: لقد جاء دور الإسلام، ودور الأمة المسلمة حيث إن الإسلام يرعى الإبداع المادي ولا يتنكر له، بل يعده وظيفة الإنسان الأولى في الأرض.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠].

وجاء دور الأمة المسلمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولكن الإسلام لا يؤدى دوره إلا من خلال مجتمع وأمة - فلا تصلح الدعوة إلى عقيدة نظرية مجردة فالأمة المسلمة - كما يرى المؤلف - ليست موقعًا جغرافيًا بذاته، ولا عرقًا بشريًا مميزًا بل ما هي إلا جماعة بشرية تتبنى قيم الإسلام وتستنبط منها نظمها وخططها فلابد من بعث هذه الأمة من مرقدها. بعد أن غطتها تصورات بالية، وركام أقوال وأفعال لا صلة لها بالإسلام.

ومهما كانت المسافة بين محاولة البعث وبين القدرة على القيادة مسافة شاسعة نظرًا لطول غياب هذه الأمة عن الوجود وعن الشهود الحضاري دهرًا طويلًا وإذا كانت العبقرية الأوروبية قد قادت العالم وأورثته رصيدًا ضخمًا من العلم والثقافة والأنظمة والإنتاج المادي - فإن هذا الرصيد الحضاري لابد من استمراره، ومن تنميته، وتطويره، وتخليصه من عوامل الضعف النفسي والسقوط الروحي والصراع الذي يستهدف استئصال البشرية شيئًا فشيئًا.

واستمرار الرصيد الحضاري وتجدده منوط بأمة تعرف هدفها وتلتزم قيمها، وبعث هذه الأمة يتطلب جهدًا وجهادًا ليعرض العقيدة والمنهج عرضًا حيًا يمشى على الأرض، وليس أقوالًا تلقى، وأحلامًا تحكى، أو تطبيقات سابقة في التجربة

الإسلامية لا مكان لها الآن في الأرض ولا في دنيا الناس.

إن بعث هذه الأمة يحتاج إلى «طليعة» تعزم هذه العزمة وتمضى على الطريق لا يشغلها غير رسالتها في هداية العالم.

كما لابد لهذه الطليعة من «معالم في الطريق» تعرف منها طبيعة دورها وحقيقة وظيفتها• وصلب غايتها، ونقطة البدء في الرحلة الطويلة.

كما تعرف منها حقيقة موقفها من الجاهلية الضاربة في الأرض أن تلتقي معها وأن تفترق، ثم يختم المؤلف هذه المقدمة قائلًا:

«لهذه الطليعة المرجوة المرتقبة كتبت معالم في الطريق.. منها أربعة فصول مستخرجة من كتاب «في ظلال القرآن» مع تعديلات وإضافات مناسبة لموضوع الكتاب، ومنها ثمانية فصول غير هذه المقدمة مكتوبة في فترات حسبما أوحت به اللفتات المتوالية إلى المنهج الرباني، والكتاب كله يمثل المجموعة الأولى من هذه المعالم والتي أرجو أن تتبعها مجموعة أخرى أو مجموعات. كلما هداني الله إلى معالم هذا الطريق، وبالله التوفيق.

يطرح المؤلف رؤيته في أن القرآن الكريم قد أوجد على الأرض جيلًا يشكل جماعة، ومجتمعًا يلتزم هذا القرآن اعتقادًا ودليلًا ونبعًا يستقى منه أساليب حياته، دون أن يكدر هذا النبع أي مورد آخر سواء من شرائع سابقة أومن عادات متوارثة• ومع انفراد القرآن الكريم وتفرده في الهيمنة على الناس وإدارتهم وقيادتهم وتدبير مصالحهم، كان هناك معلم آخر هو اختلاف منهج التلقي، فقد كان جيل الصحابة يقرأون القرآن لا للثقافة والإطلاع ولا التذوق والمتاع، بل كان هؤلاء يقرأون القرآن كدواء لأمراضهم، وأمرًا مباشرًا بتصحيح مسيرتهم، وذلك سر من أسرار القرآن من قرأه ليعمل به فتح له القرآن كنوزًا لا حصر لها، ومن قرأه ثقافة

ومعرفة لا ينل من بركاته إلا أقل القليل.

ومعلم ثالث في التلقي، حيث كان الناس إذا جاءوا إلى القرآن انخلعوا من كل فكر غيره وكل صلة لا يقرها وكل فعل ينكره القرآن.

ويقرر المؤلف قرب نهاية الفصل أنه لابد من أن نتجرد - في فترة الحضانة والتكوين..من كل المؤثرات الجاهلية التي لا تستجيب لتعليم هذا النبع الذي لا يصلح أن يشاركه غيره.

«طبيعة المنهج القرآني»

يقرر الكاتب أن أساس المنهج القرآني من قاعدته إلى قمته هي قضية الاعتقاد، فقد بقى الإسلام مع القرآن في مكة قرابة عشر سنوات لا يثير قضيته ولا يرفع دعوته إلا مجرد التوحيد والتأكيد عليه..

فهذا القرآن (في مكة) يعرف الإنسان بذاته، ومنشئه ثم طريقه وطريقته..ثم نهايته وعلى ذلك يعرف الإنسان من الذي جاء به.. ولماذا جاء به..

فلا سياسة ولا اقتصاد ولا اجتماع ولا زعامة ولا جهاد بل ولا دعوة للأخلاق بل هو تأسيس البناء حتى يستقر في قلب وعقل كل مسلم أنه مخلوق لإله قادر حليم، خلقه وزكاه وجعله سيدًا بين سائر المخلوقات المسخرة له. لأن عليه دورًا رياديًا في استثمار كل المسخرات وتحقيق أقصى الخيرات لجميع بني آدم.

فما استقرت العقيدة أصلها وحدانية الله وتنزيهه - كان فرعها كرامة الإنسان وتحرره من عبادة أمثاله البشر (إخضاعًا وذلًا) وكذلك من وقوعه أسيرًا لشهواته.

فها هو التوحيد وهو يقرر حقيقة الوجود يظهرها في وحدانية الله وكرامة الإنسان (حيث لا ضغوط عليه في الأرض ولا في نفسه فتأسيس العقيدة هي مرحلة إعادة الميلاد، هي مرحلة التخلية والتمهيد، هي مرحلة التأسيس للارتفاع والقوة

والبقاء والنماء.

وحين بدأ الإسلام في تأسيس العقيدة وإصلاحها.. فقد انتظمت حولها الجماعة التي تؤمن بها والتي يمكن لها أن تتفاعل معها فتنطلق في الآفاق هكذا - يرى المؤلف - إن البدء بالعقيدة كأساس لا يعوذه التنظير ولا التقنين. بل يكفى - كما يؤكد - تجمع حركي يتمثل العقيدة ويترجمها ترجمة صحيحة.

ويقرر المؤلف بوضوح لا لبس فيه أنه لا يلزم نظرية وبرامج، وأن المطالبة بالنظرية والمنهج محض استدراج بعيدًا عن الحقيق ... فالحقيق والمنهج هو التجمع الحركي الساعي خلف عقيدة وحسب .

ويختم المؤلف هذا الفصل بقول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

نشأة المجتمع المسلم وخصائصه

يبدأ المؤلف هذا الفصل مقررًا أن الجاهلية لم تكن لها نظرية مجردة، بل ربما أحيانًا لم تكن لها نظرية على الإطلاق، إنما كانت متمثلة في تجمع حركى• متمثلة في مجتمع له تقاليده وعاداته، لذلك فلا يجدي أمام هذا المجتمع(الجاهلي) أن تقدم نظرية مجردة أمام «مجتمع حركي مواربًا لحركه» .

بل لابد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلي القائم فعلًا.

ويستطرد المؤلف تصوره:

القاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام، هي شهادة التوحيد وإفراد الله بالإلوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.

هذه القاعدة هي نهج الحياة - هي الآصرة بين المواطنين، هي الساحة الذهبية التي تتسع لكل الأجناس والأعراق - إنها عقيدة جميع الإنسانية.

لا فضل فيها لا لجنس ولا لعرق وللغة ولا لمهنة - فالجميع عباد متساوون رعية للإله الواحد. إنها قاعدة إنسانية تتجاوز المادة كما تصور البعض وتتجاوز الحيوانية كما تخيل البعض إنها القاعدة التي (تتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون).

لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان ألا وهى إنسان ذو عقيدة وإرادة حرة . ويختم المؤلف هذا الفصل بذكر الآية :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣،١٠٤].

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ [الكهف: ١٠٥، ١٠٦].

الجهاد في سبيل الله:

بدأ المؤلف هذا الفصل بنقل فصل من كتاب زاد المعاد للإمام ابن القيم وعنوان ذلك الفصل (فصل في ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعثته إلى حين لقي الله ﷻ).

وقد رتب ابن القيم هذا الفصل على أن الله قد بدأ الوحي ثم تابع على هذا النسق.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]، ثم في المدثر ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ٢]، ثم ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ثم ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح:١].

ثم من حولهم من العرب ثم العرب قاطبة، ثم العالمين فاستمر بضع عشرة سنة بغير قتال ولا جزية وأيضًا مأمورًا بالكف والصفح والصبر، ثم الإذن بالهجرة، ثم الإذن بالقتال.

ثم الأمر بقتال من يقاتله – ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله – ثم الأمر بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

ثم كان الكفار من بعد ذلك ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنه، وأهل حرب، وأهل ذمة، ثم أمره الله أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفى لهم ما استقاموا على العهد.

فإن خاف خيانتهم نبذ إليهم عهدهم ولا يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. كما أمر أن يقاتل من نقض عهده.

ثم يقول ابن القيم: ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام. وأمره أن يجاهد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم.

فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، أمره فيها بالبراءة من عهد الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام

- قسمًا أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.
- قسمًا ثانيًا لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.
- قسمًا ثالثًا أخيرًا: لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر

أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم... وما سيرته في المنافقين...الخ)

الجهاد في سبيل الله بعد التلخيص بالقلم الأحمر

بعد هذا التلخيص الذي نقله المؤلف عن «زاد المعاد لابن القيم» بدأ المؤلف يحدد سمات المنهج الذي استخلصه هو كما يلي:

١- الواقعية الجدية في منهج هذا الدين، فالدعوة - كما يراها هو- لتصحيح المعتقدات والتصورات، لكن مع ضرورة القوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة على تلك المعتقدات !!

٢- الواقعية الحركية - فالإسلام حركة ذات مراحل لكل مرحلة وسائلها فليس هناك نظريات مجردة، ولا وسائل متجمدة، ويقرر المؤلف على ذلك - أن من لا يرى رؤيته تلك فإنما يخلطون خلطًا شديدًا ويلبسون منهج هذا الدين لبسًا مضللًا ويحملون النصوص ما لا تتحمله من المبادئ والقواعد النهائية.. ويعلل ذلك بقوله: (إنهم يعتبرون كل نص من النصوص كما لو كان نصًا نهائيًا يمثل القواعد النهائية لهذا الدين)، ويستمر قائلًا في وصف مخالفيه: (وهم مهزومون روحيًا وعقليًا تحت ضغط الواقع اليائس لزراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان -: فهم يقولون إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! يحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه، وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعًا.

٣- إن الحركة الدائبة والوسائل المتجددة لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة وأهدافه المرسومة فالخطاب مع تطور مراحله من (العشيرة / من حولك / العالمين...) هو خطاب واحد، والانتهاء إلى هدف واحد بالوسائل المقررة (الدعوة والقتال).

٤- اعتبار الإسلام هو الأصل الإلهي المفروض على البشرية جميعًا... فعلى

الناس جميعًا أن يسالموا الإسلام ولا يتصدوا له.

ويتابع المؤلف – أن عدم الإكراه على العقيدة مبدأ لا يتعارض مع مبدأ تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه.. ومن يقع في هذا الخلط فهو مهزوم روحيًا.

ويتابع المؤلف بيانه بأن الإسلام موكول به إقامة مملكة الله في الأرض، وأن الإسلام هو إعلان عام لتحرير الإنسان في كل الأرض وهو إعلان حركي إيجابي لابد وأن يتخذ جميع الأسباب لتحقق ذلك فالإسلام ليس دينًا للعرب فحسب، بل هو للبشرية كلها.

وينهى المؤلف هذا الفصل بتأكيده على «أحادية الرؤية» التي اعتمد في صياغتها على النقل من زاد المعاد لابن القيم، ويكرر مؤكدًا أن جميع المعاصرين الذين يرون غير ما يرى هم مهزومون تحت ضغط الواقع داخليًا والاستشراق الماكر خارجيًا قد غشي على أفكار الباحثين العصريين – المهزومين– ذلك التصور لطبيعة الدين وأنه مجرد عقيدة في الضمير لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة مما يجعل الجهاد الديني جهادًا لفرض عقيدة...

ويقرر المؤلف قائلًا: حيثما وُجد التجمع الإسلامي، الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام، وإذا كان التاريخ يشهد أن الله كف يد الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد فهذه مسألة خطة، لا مسألة مبدأ.

وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن تفهم النصوص القرآنية المتعددة.

(الفصل السادس «لا إله إلا الله منهج حياة»

يقول المؤلف: إن الشهادة بشقيها (لا إله إلا الله – محمد رسول الله) قاعدة

لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها.. فلا حياة مسلمة بغير هذه القاعدة.

ويرتب المؤلف على هذه المقدمة استنتاج أربع قضايا هامة هي:

١- تحديد طبيعة المجتمع المسلم.

٢- تحديد منهج نشأة المجتمع المسلم.

٣- تحديد منهج الإسلام في مواجهة الجاهلية.

٤- تحديد منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية.

وتحديد طبيعة المجتمع المسلم وتحديد منهج النشأة لا خلاف فيما ذكره المؤلف من غالبية مدارس الدعوة التي شغلت ساحة الفكر الإسلامي قديمًا وحديثًا. فالتوحيد عقيدة أولًا وإطارًا للحركة ثانيًا مما لا داعي للإطالة بذكره.

(٣) **تحديد منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية**:

أخذ المؤلف يشرح رؤيته وتعريفه للمجتمع الجاهلي.. ويبدأ بوضوح لا لبس فيه فيقرر أن: «إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم» ، ويضيف إذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا إن المجتمع الجاهلي هو «كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده، متمثلًا في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية» ويستمر موضحًا». وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار المجتمع الجاهلي جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلًا !! ويتابع:

١- تدخل في المجتمع الجاهلي: المجتمعات الشيوعية بإلحادها وإنكارها.

٢- المجتمعات الوثنية (الهند واليابان وأفريقيا وغيرها) لتأليه وعبادة غير الله.

٣- المجتمعات اليهودية والنصرانية في جميع الأرض لتحريفها ما أنزل الله.

٤- المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة لأنها تنشئ نظام حياتها على غير

ما أنزل الله.

ويذكر المؤلف من بين آيات القرآن إن الله قال عن الحاكمين: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤].

وإن الله يقول عن المحكومين:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٠-٦٥].

والقرآن في غير هذا قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وهذه المجتمعات بعضها يعلن علمانيته وانقطاع علاقته بالدين، وبعضها يعلن

احترامه للدين ولكن يخرج من نظامه الاجتماعي ويقول بإنكار الغيبية.. ويقولون بتناقض الغيبية مع العلمية وهذا زعم الجهال.

لذلك فالإسلام يرفض كل تلك المجتمعات.

٤- ويعالج المؤلف في نهاية هذا الفصل القضية الرابعة والأخيرة من النتائج التي رتبها على شهادة التوحيد.. فيقول:

إن ما بينه آنفًا يقودنا إلى تحديد منهج الإسلام في مواجهة العالم البشرى كله اليوم ونداء إلى آخر الزمان، ومواجهة هذا الواقع كما سبق أن بينها في الفصل السابق (الجهاد).

محددة بالدعوة لإزالة التصورات، وبالجهاد لإزالة الأنظمة والحكومات الجاهلية.

«الفصل السابع» شريعة كونية:

يستثمر المؤلف هذا الفصل لبيان رؤيته هو «للتصور الإسلامي للوجود» وهو في شق من هذا التصور متبع لا مبتدع ويتوافق رأيه مع آراء كل المؤمنين من قبل ومن بعد «أن الكون كله مملوك لله وهذا ما يقول به كل المؤمنين.. لكن المؤلف يرتب على ذلك أن من طبيعة وضرورة وحقيقة هذا الإيمان ليس مجرد الالتزام بالأحكام في الشعائر والمعاملات والعقائد بل لابد من استعمال القوة في قهر جميع القوى الأخرى على ذلك.

«الفصل الثامن» الإسلام هو الحضارة:

يقرر المؤلف في هذا الفصل أن المجتمع الإسلامي كما يراه هو- هو الوحيد المجتمع المتحضر، وكل المجتمعات غيره توصف بالتخلف أوالجاهلية.

ويؤكد المؤلف: أن التشريع لا ينحصر في الأحكام كما يتوهم البعض،

فالتصورات والمناهج، والقيم والموازين والعادات والتقاليد كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه، وحينما يصنع الحكام هذه الضغوط فإنهم يشرعون كما أنهم يتألهون ويصبحون أربابًا والآخرون عبيدًا.

المجتمع الإسلامي هو الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية، وتعتبر فيها العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأسود والأحمر والأبيض إلخ في أمة واحدة. وحين تكون إنسانية الإنسان هي القيمة، وليست بعض الماديات، فهذا هو المجتمع المتحضر

إن المجتمع الإسلامي لا يحتقر المادة في أصلها ولا في تحولها حيث إنها أحد مخلوقات الله كما أنها أحد مقومات الإعمار، لكن الإسلام مع تقديره للمادة لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تطيح بالإنسانية ومقوماتها، وتهدر من أجلها كرامة الإنسان المستخلف.

ويقرر المؤلف ص ١٣١: أن المجتمع الإسلامي ليس صورة تاريخية نبحث عنها في ذكريات الماضي بل هو طلب الحاضر وأمل المستقبل، إنه هدف البشرية كلها لتخرج به من الظلمات إلى النور والحضارة الإسلامية تتخذ أشكالًا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، لكن أصولها وقيمها ثابتة (عبودية الواحد، والتجمع على آصرة العقيدة / استعلاء الإنسانية على المادة وحرمة الأسرة وتحكيم منهج الله).

ولا تتوقف الحضارة في منهج الإسلام على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي - رغم أهمية هذا التقدم، بل تبقى ثابتة الأصول التي أشرنا إليها ثم تستكمل درجات نموها المادي.

«الفصل التاسع» التصور الإسلامي والثقافة:

يبدأ المؤلف هذا الفصل مقررًا أن شريعة الله تعنى: كل ما شرعه الله لحياة

البشرية من أصول اعتقاد، وأصول حكم، وأصول أخلاق، وأصول سلوك، وأصول معرفة أيضًا.

وبعد أن يلخص ما سبق طرحه في الفصول السابقة يقرر أن أمر النشاط الفكري والفني لابد وأن يرجع إلى التصور الإسلامي والأصل الرباني، وقد يكون - كما يقول المؤلف هذا القول غريبًا حتى على قراء مثل هذه البحوث الإسلامية.

ويستأنف المؤلف حديثه قائلًا: في النشاط الفني صَدَر كتاب كامل يبين ضرورة خضوع الفن للتصور الإسلامي، هذا الكتاب هو «منهج الفن الإسلامي» لمحمد قطب. ثم يأخذ المؤلف في بيان قضية النشاط الفكري إذا تلقى المسلم معلومة في العلوم البحتة (الكيمياء - الطبيعة - الفلك - الطب - إلخ) عن البشر فإنه لا يمكن أن يتلقى تشريعًا ولا سلوكًا ولا قيمًا ولا أصولًا سياسة واقتصادًا إلا من المصدر الرباني - يعنى عن مسلم يثق في دينه وتقواه أن هذا الذي يتلقى عنه قد استوعب الربانية.

ويبين المؤلف: أن اتجاهات الفلسفة، وتفسير التاريخ، وعلم النفس، والأخلاق ودراسة الأديان كل ذلك انطلق من تصورات جاهلية.

فالقول أن الثقافة تراث إنساني قول صحيح في نطاق الشؤون المادية والعلوم البحتة، أما الشأن الإنساني وما يلتصق به فليست تراثا إنسانيا بل هي خلاصة وحى رباني.

وهنا يذكر المؤلف: أن الذي يكتب هذا الكلام - نفس المؤلف - إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية ما هو من تخصصه، وما هو من هوايته، ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره، فإذا هو يجد أن كل ما قرأه ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم، ويعلن

المؤلف: أنه غير نادم على ما قضى فيه ٤٠ سنة من عمره فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها.

ويؤكد قائلًا أن قوله هذا ليس برأي إنما هو قول الله - سبحانه وتعالى - وقول نبيه ﷺ.

ويبدأ فيذكر آيات من القرآن تؤكد ما يقول:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٩،٣٠].

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وعلى ذلك ينتهي المؤلف في هذا الفصل إلى ضرورة الحيطة والحذر حتى في نطاق العلوم البحتة أما العلوم الإنسانية فلا مجال لأخذها عن غير الإسلام والمسلمين.

الفصل العاشر «جنسية المسلم وعقيدته»:

يقول المؤلف: جاء الإسلام ليقرر أن هناك صلة واحدة بين الناس هي صلة

الإيمان:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأن هناك حزبًا واحدًا لا يتهدد، وأحزابًا كثيرة للشيطان والطاغوت:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٧٦].

وأن طريقًا واحدًا يوصل إلى الله: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأن نظامًا واحدًا هو الإسلامي وما عداه جاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠].

وأن شريعة واحدة هي الإلهية، وما عداها هوى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:١٨].

وأن هناك حقًا واحدًا، وما عداه هو الضلال: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

وأن هناك دارًا واحدة هي دار الإسلام، وما عداها فهي دار حرب:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا

وَنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٥].

وإذا أوصى الإسلام بمصاحبة الوالدين بالمعروف ولو كانوا غير مؤمنين فإن هذا مشروط بعدم عدائهم للإسلام وأهله وضرب المؤلف مثلًا بعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول وقيامه ليقتل أباه لما بدر منه في حق الرسول (ﷺ)، غير أن رسول الله ﷺ منعه من ذلك ويذكر المؤلف آيات القرآن التي تقطع أي علاقة للقربى إذا تعارضت مع أجرة الإيمان:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٢٦].

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨].

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٣-١٦].

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١٠، ١١].

ويفرغ المؤلف من التأكيد على هذا المعنى بقوله:

إن رسول الله ﷺ قد تآخى مع الأوس والخزرج وبلال الحبشي وصهيب الرومي (على الإيمان) في الوقت الذي تبرأ فيه من أبى لهب وأبى جهل بسبب كفرهما. فهذا كما يقول المؤلف - هو الإسلام وحده.

«الفصل الحادي عشر» «نقلة بعيدة»:

يؤكد المؤلف في بداية هذا – إن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة تصور كامل ذو خصائص متميزة، ومن ثم ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها بكل مقوماتها وارتباطاتها، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة.

وهذا التصور يخالف سائر التصورات الجاهلية قديمًا وحديثًا، وقد يلتقي مع بعضها في جزئيات عرضية جانبية.

ووظيفة الإسلام الأولى هي أن ينشىء حياة إنسانية توافق هذا التصور.أن يقيم في الأرض نظامًا يتبع المنهج الرباني الذي اختاره الله. وهو يخرج هذه الأمة المسلمة لتمثله وتقوم عليه.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠].

ويصف هذه الأمة فيقول:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

وليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع الجاهليات السائدة في الأرض ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان

فلم تكن وظيفة الإسلام يوم جاء ولن تكون اليوم ولا في المستقبل.

فالجاهلية هي الجاهلية حيث الانحراف عن عبودية الله وحده وعن المنهج الإلهي، هي عبودية الناس للناس.

ويستدعى المؤلف آيات من القرآن ليؤكد رؤيته:

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وظيفة الإسلام هي - كما يرى المؤلف - إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية وتولى هذه القيادة على منهجه الخاص.

ويتابع المؤلف قائلًا: لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسسا، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة، كما يحاول من يقول (ديمقراطية الإسلام) و(اشتراكية الإسلام) ولا القائلين بتلك التعديلات الطفيفة التي تصلح مناهج الآخرين. كلا إن الأمر مختلف جدًا.

«الفصل الثاني عشر» «استعلاء الإيمان»:

يبدأ المؤلف هذا الفصل بقول الله - تعالى - : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وهذه الآية لا تتحدث عن الجهاد فحسب، بل هي تصف الحياة الدائمة للمؤمنين. إن هذا القول يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء وكل وضع.الاستعلاء على قوى الأرض البعيدة عن منهج الإيمان. ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

يجيء هذا التوجيه ليواجه الوهن والحزن، فالمؤمن بإيمانه أعلى من كل ما حوله.. أعلى عقيدة وتصورًا، أعلى قيمًا وسلوكًا، أعلى شريعة ونظامًا.

وهنا يستعين المؤلف بخبرين من تاريخ الأمة أحدهما موقف المغيرة بن شعبة الصحابي الجليل مع رستم عظيم الفرس، ومن بعد موقف ربعي بن عامر مع رستم أيضًا.

وقدرة ربعي بن عامر الفائقة على استدعاء خلاصة الإسلام في رده على (رستم): «جئنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس».

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٨، ٩].

«الفصل الثالث عشر» «هذا هو الطريق»:

يصل المؤلف إلى نهاية رحلته فيستعرض سورة البروج، ويذكر استعلاء المؤمن بإيمانه وتحمله للشدائد.. ومهما كانت نهاية اللقاء وشدته على المؤمنين فإن الدنيا كلها لا تتساوى مع قيمة العقيدة. فثبات المؤمنين يضمن لهم ود الرحمن: ﴿إِنَّ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم:٩٦].

وكذلك قول رسول الله ﷺ: «**يقول الله (أنا عند ظن عبدي بي - وأنا معه....)**» [أخرجه الشيخان].

ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦،١٩٧].

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴾ [إبراهيم: ٤٢،٤٣].

﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج ٤٢-٤٤].

ويفرغ المؤلف مقررًا: إنها معركة عقيدة قبل أي شيء وبعد أي شيء.

ويستدعى قصة الاستعمار الغربي هل تسربل بالصليبية؟ أم أن الصليبية هي التي تسترت وراء الاستعمار؟

إنها العقيدة فلماذا لا نراها عقيدة قبل أي شيء؟

تقييم الكتاب:

الكتاب من حيث موضوعه جد خطير فهو يتعلق بالحقيقة الكبرى حقيقة

الإيمان وعدمه أو(الإيمان والكفر) وما يجب أن يترتب على المؤمن حيال هذه الحقيقة.. تلك الحقيقة التي قسمت سلف الأمة (إلى سنة وشيعة ومعتزلة وخوارج) ثم قسمت كل فرقة إلى فرق كل فريق يحدد للإيمان معالمه ومظاهره، حتى تواضعوا جميعًا على مصطلح غاية في الغرابة ألا وهو مصطلح: ما عرف من الدين بالضرورة.. فمن هذا الذي يجب أن يعرف، وما حجم معرفته، وما قدرته على تصور هذا الذي ابتدعوه وأقل ما أقول في مواجهة ذلك الاصطلاح. أن تحصيل ما عرف من الدين بالضرورة يؤكد ضرورة أن يكون المؤمن قارئًا وكاتبًا وربما متفلسفًا حتى يعرف ما وصفوه. وهذا أمر مستحيل نظرا لتفاوت القدرات.

والكتاب أيضًا يثير تساؤلات هامة لابد من الوقوف عندها:

(١) متى بدأ المؤلف – رحمه الله – دراسة العقائد دراسة كافية لأن يقرر منفردًا ترجيح تصور ابن القيم ﷺ في تلخيص حكم الجهاد وفي تقسيم العالم إلى دار السلام ودار حرب، مع وجود تصورات أخرى لأعلام كابن القيم وربما أشد رسوخًا منه يرون غير ما يرى ويؤيدون رؤاهم بالقرآن الكريم وصحيح السنة.. فهل تصور المؤلف – رحمه الله – أن يفرض قولًا من أقوال المذهب الحنبلي والسلفية على المسلمين فرضًا كما وكانت أدلتهم التي يسوقها أدلة قطعية الدلالة لا تحتمل غير ما يرونه !

(٢) لا تنكر على المؤلف رؤيته لواقع العالم، وحاجة العالم إلى الإسلام، لكن كيف يُعرَض الإسلام؟ وكيف يقدم؟ فذلك ما لا يسلم للمؤلف ولا لغيره اللهم إلا أن يكون إجماعًا فقهيًا مستندًا إلى مرجعية الكتاب والسنة وقد تيسرت سبل الإجماع والتواصل، ولا يبقى إلا تيسير وجود قلوب راغبة في رضوان الله، وعقول قادرة على التقارب والتدارس مع الأدلة كلها حتى يترجح الراجح بغض النظر عن قائله.

(٣) كذلك نريد أن نؤكد ما ترجح لدى كافة من يعتد بهم أن قول القدامى ومنهم ابن القيم بالنسخ في آيات القرآن أصبح أمرًا مرفوضًا لدى كافة الفقهاء المعاصرين بعد دراسات علمية وأكاديمية شرعية محكمة في الأزهر وفي كلية دار العلوم التي تخرج فيها المؤلف مثل دراسة (النسخ في القرآن الكريم) التي نال بها د.مصطفى زيد درجته العلمية في دار العلوم فإذا أضفنا إلى ذلك ما انتهى إليه علماء آخرون نذكر منهم عالما آخر تخرج في دار العلوم أيضًا كما أنه انتسب للجماعة التي انتسب لها المؤلف – رحمه الله – وهذا العالم الذي أشير إليه هو الأستاذ عبد المتعال الجابري بكتابيه اللذين لم يعترض عليهما أحد ذو قيمة أو مكانة في هذا التخصص كتاب «لا نسخ في القرآن» وكتاب «لا نسخ في السنة».

وعلى ذلك فآيات الجهاد في القرآن وأحاديثه الصحيحة لم تنسخ بل كل منها باق على سريانه إلى يوم الدين وليس بين الآية وغيرها إلا التدرج مع كل حالة توحيد في أرض الواقع، مما يلغى فكرة تحكيم السيف في رقاب المخالفين.

(٤) دائمًا يضع المؤلف – رحمه الله – عناوين لفصوله هي بمثابة قاعدة أو شعار وهذه قمة التأليف لكنه في ضوء القاعدة والشعار سرعان ما ينحاز إلى رؤية أحادية لا يقبل غيرها... وليته ينتهي عند ذلك الحد... بل يتحول سريعًا – من رفض الرؤى الأخرى إلى ضرورة مقاومتها واقتلاعها متأولًا في ذلك نصوصًا قرآنية لا تساعده فضلًا عن تناسيه للأسوة الحية الوحيدة القابلة للتأسي ألا وهى أسوة رسول الله ﷺ فتراه أيضا يحولها من سنة ثابتة منيعة إلى وسيلة متغيرة (تكتيك) (مؤقت) وهذا ما يستحيل أن يكون في حق النبوة والأنبياء.

(٥) وأخيرًا حتى لا تفيض أو تعيد فالمؤلف – رحمه الله – بما لا يخالف فيه أحد هو أحد أعلام الأدب والثقافة في عصره وهو أحد أعلام النقد الأدبي والكتابة الصحفية الصادقة وذلك إذا أعطاه الحق في خوض غمار العقائد ومحاولة دراستها،

فإن سوابقه وقدراته لا تنهض به فقيهًا منظرًا ولا متكلمًا في التوحيد إلى تلك الدرجة التي يهدر بها - منفردًا - إيمان أقوام، مما يبيح دماءهم ويفرض اقتلاعهم وطي صفحاتهم من الوجود.

كذلك فمهما كان الفساد شديدًا والإفساد أشد فلا يجب على الدعاة أن يتناسوا قول الله (سبحانه وتعالى) لموسى ﷺ حينما وجَّهه مع أخيه لفرعون ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤] مع علم الله بمصير فرعون.

ولا بد من الاعتراف للمؤلف -الشهيد سيد قطب-بما له من قدرات شخصية وبلاغية فذة مثل قدرات التأمل والتصور - كذلك قدرات الوصف وإتقان التعبير، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه -يرحمه الله- حاول محاولته مجتهدًا فإن له الأجر والمثوبة.ولولا هذا الإصرار على أحادية الرؤية لكان المؤلف أقرب إلى الجماعة المسلمة التي تحتاج إلى طبيب يعالج، وليس إلى أمير يأمر وينهى.و رحمه الله رحمة واسعة.

عن المؤلف سيد قطب:

نشأة قروية:

ولد سيد قطب لأسرة شريفة في مجتمع قروي (صعيدي) في يوم ٩/ ١٠/ ١٩٠٦م بقرية موشا بمحافظة أسيوط، وهو الابن الأول لأمه بعد أخت تكبره بثلاث سنوات وأخ من أبيه غير شقيق يكبره بجيل كامل. وكانت أمه تعامله معاملة خاصة وتزوده بالنضوج والوعي حتى يحقق لها أملها في أن يكون متعلمًا مثل أخواله.

كما كان أبوه راشدًا عاقلًا وعضوًا في لجنة الحزب الوطني وعميدًا لعائلته التي كانت ظاهرة الامتياز في القرية، واتصف بالوقار وحياة القلب، يضاف إلى ذلك أنه

كان دَيِّنًا في سلوكه.

ولما كتب سيد قطب إهداء عن أبيه في كتابه «مشاهد القيامة في القرآن» قال: «لقد طبعتَ فيّ وأنا طفل صغير مخافة اليوم الآخر، ولم تعظني أو تزجرني، ولكنك كنت تعيش أمامي، واليوم الآخر ذكراه في ضميرك وعلى لسانك.. وإن صورتك المطبوعة في مُخيلتي ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء، فتقرأ الفاتحة وتتوجه بها إلى روح أبيك في الدار الآخرة، ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات قبل أن نجيد حفظها كاملات».

وعندما خرج إلى المدرسة ظهرت صفة جديدة إلى جانب الثقة بالذات من أمه والمشاعر النبيلة من أبيه وكانت الإرادة القوية، ومن شواهدها حفظه القرآن الكريم كاملًا بدافع من نفسه في سن العاشرة؛ لأنه تعود ألا يفاخره أبناء الكتاتيب بعد إشاعة بأن المدرسة لم تعد تهتم بتحفيظ القرآن.

وفي فورة الإحساس والثقة بالنفس كان لظروف النضال السياسي والاجتماعي الممهدة لثورة ١٩١٩ أثر في تشبعه بحب الوطن، كما تأثر من الثورة بالإحساس بالاستقلال وحرية الإرادة، وكانت دارهم ندوة للرأي، شارك سيد قطب فيها بقراءة جريدة الحزب الوطني، ثم انتهى به الأمر إلى كتابة الخطب والأشعار وإلقائها على الناس في المجامع والمساجد.

*****